المبحث الأول

مدخل وتمهيد

١ - اختلاف المسلمين وأسبابه.

٢ - كيف افترقت الأمة الإسلامية؟

obeikandl.com

obeikandl.com

أولًا: اختلاف المسلمين وأسبابه

بدايةً نستطيع أن نقول: إن المسلمين وقد اختلفوا في اعتقاداتهم وسياساته وأمورهم الفقهية، إلا أن هذه الاختلافات لم تكن في أمر من أمور الدين معلومًا بالضرورة: كتحريم الخمر، ولحم الخنزير، وأكل الميتة، ولم يمس هذا الاختلاف من قريب أو بعيد جوهر الدين الحنيف؛ فجميع المسلمين لا يختلفون في أن الله واحد أحد فرد صمد، فلا يشكون في وحدانية الله تعالى، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ولا يشكون في أن القرآن هو معجزة الرسول ﷺ، وأنه وحي الله المنزل إلى نبيه المصطفى ﷺ، ولا يختلفون في أصول الفرائض: كالصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وإنما الاختلاف في أمور لا تمس أركان الدين وأصوله العامة.

وكأن رسول الله ﷺ كان يتنبأ بما سيقع للمسلمين من اختلاف، وذلك لون من ألوان الإعجاز الحديثي الشريف، فقد روى (البخاري) عن (زينب بنت جحش) زوج الرسول ﷺ أنها قالت:

استيقظ النَّبيُّ ﷺ مُحْمَرًّا وجهُه يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ»، وفي هذا إشارة نبوية شريفة إلى ما جرى بين

المسلمين من اختلاف بعده[١].

ويُروَى أن النَّبيَّ ﷺ قال: «افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبَعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً».

ولقد تكلم العلماء في صحة هذا الحديث الذي رُوي بعدة طرق، وروايات متعددة، وقال المقبلي في كتابه (العلم الشامخ): وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة، يشدُّ بعضُها بعضًا؛ بحيث لا تبقى ريبة في حاصل معناه ... ولفظ حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، تَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً تَزِيدُ عَلَيْهِمْ مِلَّةً،

---

(١) ينبغي أن نلاحظ أنه إذا كان الاختلاف في الأمور العقيدية شرًّا إلا أن الاختلاف الفقهي، والاجتهاد في غير ما جاء به نص من الكتاب السُّنَّة لم يكن شرًّا، ولم يكن افتراقًا، بل كان خلافًا في النظر، يقول عمر بن عبد العزيز: (ما أحب أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يختلفون؛ لأنه لو كان قولًا واحدًا لكان الناس في ضيق وإنهم أئمة يُقتدَى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سُنَّة) الاعتصام للشاطبي جـ٣ ص ١١.

كُلُّهُنَّ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قال: يا رسول الله مَنِ الملة الواحدة؟ قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي(١)»، وفي تفسير الفخر الرازي(٢) رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَفَرَّقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَهَلَكَتْ سَبْعُونَ، وَخَلُصَتْ فِرْقَةٌ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَتَهْلَكُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ فِرْقَةً وَتَخْلُصُ فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ» قالوا: يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية؟ قال: «الجَمَاعَةُ الجَمَاعَةُ الجَمَاعَةُ...» فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ ﴾ الجماعة المتمسكة بما بيَّنه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات، وأن في قول الرسول الله ﷺ في الناجية أنها «الجَمَاعَةُ»: إشارة إلى أن هذه أشار بها إلى أمة الإيمان، وإلا كان قوله -في تعريف الفرقة الناجية: إنها الجماعة- لغوًا؛ إذ

---

(١) نلاحظ أن كُتَّاب الفرق الإسلامية، مثل: البغدادي، والشهرستاني كافحوا بطريقة غريبة عجيبة؛ حتى يجعلوا عدد فرق الإسلام، مثل: العدد المنصوص عليه في الحديث.

(٢) اشتبه في صحة هذا الحديث الإمام فخر الدين الرازي المُتَوَفَّى عام ١٢٠٩م في تفسيره (مفاتيح الغيب) جـ ٢٢: ص ٢١٨ في تفسير سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٢: ٩٣].

لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهي جماعة من حيث العدد.

وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر، فقال: إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان فلم يبلغ هذا القدر، وإن أراد الفروع فإنها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك، وقيل أيضًا: قد رُوي ضد ذلك، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة، والجواب -كما يرى الرازي- المراد ستفترق أمتي في حال ما، وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص"[1].

---

(١)المرجع السابق جـ٢٢، ص ٢١٩ تفسير الرازي طبعة إحياء التراث العربي يقول فيليب حتى: (وللعلماء العصريين نظريات في أصل هذا الحديث وكيفية نشوئه، فمنهم (بالجريف) **Palgrave** الذي أرجع فرق النصارى الأثنتين والسبعين إلى تلامذة المسيح الاثنين والسبعين المنصوص عليهم في العهد الجديد، و(شتنشنيدر) **Steinschneider** في مجلة المستشرقين الألمانية **ZDMG** مجلد ٤ ص ١٤٧، الذي رد القول بفرق اليهود الإحدى والسبعين إلى رواية العهد القديم بشأن انتخاب موسى سبعين رجلًا من بني إسرائيل، وجولد زهير **Goldziher**

Le Dog me et la loi de I,islam: Page ١٥٧. Revue De Izhestoire de Religions: Part ٢٦. Page ١٢٩.

إن الحديث في وضعه الأصح إنما هو الحديث الوارد للمرة الأولى =

وإننا نرى أيضًا أن فرق المسلمين الاثنتين والسبعين ليسوا كفارًا، فالرسول ﷺ يقول: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي»، وهذا يعني أن هذه الفرقة من أمة محمد ﷺ لم يخرجوا عن أمته، وإن فسقوا وانحرفوا وضلوا عن الصراط؛ ولذلك فهم ليسوا مخلدين في النار كالكافرين والمشركين...

أما من كفر من هذه الأمة كفرًا صريحًا بواحًا، وخالف قواعد الدين وأركانه فهو كافر بما أُنْزِل على محمد، وخرج من الفرق

=

في صحيح البخاري ١: ٨ «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسُتُّونَ شُعْبَةً وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»، (وأنه بتوالي الأعوام أسيء فهم المقصود من شعبة: فصيلة، وحُرِّف الحديث بحيث أصبح ما هو عليه).
فليب حتى هامش (مختصر كتاب الفَرْقُ بين الفِرَقِ) للرسعني ص١٥.
والحقيقة أن هذه وجهة نظر مستشرقين غير موضوعيين فحديث: «افتراق الأمة على ثلاث وسبعين» له أسانيد كثيرة وطرق متعددة، وقد رواه عن النبي ﷺ عدة من الصحابة؛ كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأُبَي بن كعب، وعبد الله بن عمرو ابن العاص، وغيرهم، وكلهم متفقون على رواية الحديث.

opelkanz.com

الاثنتين والسبعين، وخرج من أمة محمد، ومن أمثال هؤلاء الخارجين: النصيرية [العلوية]، والقرامطة، والإسماعيلية، والدروز، والقاديانية، والبهائية، والبابية.

ومن الفرق الباطنية الكافرة المعاصرة في أمريكا، وتنتسب إلى الإسلام بهتانًا وزورًا فرق تسمى (الأليجية والفرهخانية)، و (جمعية أنصار الله)، ومن الخوارج اليزيدية والميمونية.

أهم الأسباب الاختلاف بين المسلمين بعد النَّبيّ ﷺ

هناك أسباب عديدة لاختلاف المسلمين بعد النَّبيِّ ﷺ منها كما يرى مولانا الشيخ محمد أبو زهرة[1] منها: (العصبية العربية) مع أن الإسلام حارب العصبية، فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والرسول ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ»، ويقول: «كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى».

---

(١)في كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١، ص ١١، وما بعدها باختصار.

وقد اختفت العصبية في عصر النَّبيّ ﷺ بهذه البيانات الواضحات، واستمر اختفاؤها إلى عصر الخليفة الشهيد (عثمان بن عفان)، ثم انبعثت في آخر عهده قوية عنيفة، وكان انبعاثها له أثر في الاختلاف بين (الأمويين)، و(الهاشميين) أولًا، ثم الاختلاف بين (الخوارج) وغيرهم؛ فقد كانت القبائل التي انتشر فيها مذهب (الخوارج) من القبائل (الرِّبْعية)، لا من القبائل (المُضَرِيَّة)، والنزاع بين الرِّبْعيين والمُضَرِيين معروف في العصر الجاهلي، فلما جاء الإسلام أخفاه، حتى ظهر في نحلة الخوارج.

ومنها التنازع على الخلافة

وقد انبعث ذلك النوع من الخلاف عقب وفاة النَّبيِّ ﷺ مباشرة، فقد قال الأنصار: نحن آوينا ونصرنا فنحن أحق بالخلافة، وقال المهاجرون: نحن أسبق إلى الإسلام، فنحن أحق، ولكن قوة إيمان (الأنصار) حسمت الخلاف، ولم يظهر له أي أثر، وقد اشتدت الخلافات بعد ذلك حول الخلافة، من يكن أحق بها؟ أيكون من (قريش) جمعاء؟ أم يكون من أولاد علي خاصة؟ أم يكون من المسلمين أجمعين؟ لا فرق بين قبيل وقبيل، وبيت وبيت؟ فالجميع أمام الله تعالى سواء، والله يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «لَا فَضْلَ

لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى».

وهكذا انقسم المسلمون إلى (خوارج)، و (شيعة) وجماعات أُخَرَ.

وأيضًا من أسباب اختلاف المسلمين: مجاورتهم لكثيرين من أهل الديانات القديمة، ودخول بعضهم في الإسلام.

فقد دخل في الإسلام يهود، ونصارى، ومجوس، وكان بعضهم يفكر في الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة، فأثار بين المسلمين ما كان يثار في دياناتهم من الكلام في الجبر والاختيار، وصفات الله تعالى، أهي شيء غير الذات؟ أم هي والذات شيء واحد؟

وهناك أيضًا من دخل الإسلام ظاهرًا، وأبطن الكفر، وما كان دخوله الإسلام؛ إلا ليفسد على المسلمين أمور دينهم الحنيف، ويبث فيه الأفكار المنحرفة، ويقول في هذا المقام ابن حزم في كتابه الفصل[1]:

(والأصل في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام، أن

---

(١) ابن حزم الفصل، جـ ٢ ص ٩١.

obeikandl.com

الفرس كانوا من سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة النظر في أنفسهم حتى كأنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء، وكانوا يعدُّون جميع الناس عبيدًا لهم، فلما امْتُحِنُوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا، تعاظمت الأمور، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات كثيرة، ففي كل ذلك كان يُظْهِر الله الحقَّ ... فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل البيت، واستشناع ظلم عليٍّ -رضي الله عنه- حتى أخرجوهم عن الإسلام).

وهذا الكلام وإن كان قد اقتصر في المثال على التشيع كما يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة: كالذي كان يفعله السبئية(١)، فإنه أيضًا ينطبق على كثير من الطوائف الأخرى؛ ففي كل فرقة كان من هؤلاء، كابن الراوندي في المعتزلة، و (المشبهة)، و (المجسمة) في غيرهم، وأيضًا من أسباب الاختلاف ورود المتشابه في القرآن.

يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ مِنۡهُ ءَايَـٰتٌ مُّحۡكَمَـٰتٌ

---

(١)لا تعد السبئية من الفرق الإسلامية؛ لأنها من الطوائف الذين عملوا على هدم قواعد الإسلام كما سنبيِّن بإذن الله.

هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

بهذه الآية ثبت ورود المتشابه في القرآن الكريم؛ ليختبر الله -سبحانه وتعالى- قوة الإيمان في المؤمنين، وقد كان وروده سببًا في اختلاف العلماء في مواضع المتشابهات من القرآن الكريم، وحاول كثيرون من ذوي الأفهام تأويله، والوصول إلى إدراك حقيقة معناه، فاختلفوا في التأويل اختلافًا مبينًا، ومن العلماء من أرادوا أن يجعلوا بينها وبينهم حجابًا مستورًا، فيما كانوا يؤولون، بل كانوا يتوقفون ويقولون: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ومن أسباب الاختلاف التعرض لبحث كثير من المسائل المختلف فيها؛ وذلك نتيجة شيوع التفكير الكلامي والفلسفي بين علماء المسلمين في إثبات العقائد والحجاج والدفاع عن العقيدة، وقد جرَّهم ذلك إلى دراسة مسائل ليس في استطاعة العقل البشري أن يصل إلى نتائج مقررة ثابتة فيها، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفيها، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب، وغير

ذلك من المسائل التي تختلف فيها الأنظار وتتباين المسالك، ويتجه كلٌّ اتجاهًا يخالف الآخر، وقد أشرنا من قبل إلى ذلك.

ثانيًا: كيف افترقت الأمة الإسلامية؟

مات رسول الله ﷺ وقد ترك أمته الإسلامية على المحجَّة البيضاء تاركًا فيهم كتاب الله وسُنَّته المطهرة، ولو أن أمة القرآن فهمت ووعت ما في القرآن من دعوة إلى الاعتصام بحبل الله جميعًا، وعدم التفرق والحذر من أعدائهم وأعداء دينهم الحنيف، ولو أنهم ابتعدوا عن الأهواء والعصبية والمطامع والمآرب ما تفرقوا أبدًا إلى شيع وفرق.

ولعل أول خلاف وقع بينهم هو خلافهم في موت رسول الله ﷺ، فأنكر بعضهم موته، وقالوا: إنه لم يمت، وإنما رُفِع إلى السماء كما رُفِع عيسى -عليه السلام-، وقد حسم هذا الخلاف حين تلا الصديق -رضي الله عنه- قول الله تعالى:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال لهم قولته المشهورة: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد ربَّ محمد فإن ربَّ محمد حيٌّ لا يموت).

وكان اختلاف المسلمين الثاني يدور بينهم حول موضع دفنه

الشريف ﷺ فهناك من أشار بدفنه بمكة المكرمة؛ حيث مولده، ونشأته، وصباه، ومبعث رسالته الشريفة، وحيث قبلة المسلمين وبيت الله الحرام، وقبر جده إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- وأشار أهل المدينة بدفنه بالمدينة المنورة التي أعزت الإسلام، ونصرت الرسول ﷺ، وأشارت طائفة أخرى بنقله ودفنه بالأرض المقدسة عند قبر جده إبراهيم -عليه السلام-، ومرَّة ثانية يحسم الصديق هذا الخلاف بما رواه عن الرسول ﷺ: «**إِنَّ الأَنْبِيَاءَ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يُقْبَضُونَ**»، فدفنوا رسول الإنسانية جمعاء في حجرته الشريفة.

ثم كان هناك أضخم وأخطر مشكل واجه الإسلام، بل ظل يواجهه في سائر عصوره، وهو مشكل الإمامة، فبعد وفاته ﷺ قال القرشيون: إن الإمامة لا تكون إلا في قريش، وقال الأنصار: نحن الذين ناصرنا الرسول وأيدناه، ودعوا إلى مبايعة سعد ابن عبادة الأنصاري، فلما سمع الأنصار قول الرسول ﷺ من حديثه الشريف: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**» سلَّموا الأمر للمهاجرين، وبايعوا الصِّدِّيقَ التَّيْمِيَّ القرشي، والصديق هو الذي قال فيه الرسول: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**» وهو صاحبه في الهجرة، وهو الذي نصر الرسول والإسلام في مواقف كثيرة، وهو

الذي أنابه عنه في الصلاة في مرضه الأخير.

ولم يكن (عليٌّ) حاضرًا هذا الاجتماع الذي تم فيه اختيار الصديق أميرًا للمؤمنين؛ وذلك لانشغاله وأهل بيته في الإعداد لدفن رسول الله ﷺ، فلما بلغه خبر البيعة تأثر بعض الوقت؛ لأنه كان يرى بالذات أنه أولى بالإمارة؛ لأنه أول من أسلم وهو صبي، وأقرب الناس رَحِمًا لرسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء، ولجهاده المعروف في سبيل الإسلام.

وقد قيل: إن عليًّا سأل عما حدث في سقيفة بني ساعدة، فقالوا له: احتجَّت قريش بأنها شجرة الرسول ﷺ فقال عليٌّ: (احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة).

ولم يبايع عليٌّ أبا بكر الصديق إلا بعد وفاة السيدة فاطمة الزهراء، وقيل في رواية أخرى: إنه بايع بعد أربعين يومًا[1]، ومن

(١)ومن الروايات الشهيرة في تخلف علي وبني هاشم عن المبايعة لأبي بكر ما أورده ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة)، وذكره الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه عن أبي بكر الصديق جـ ١ ص ٦٢ و ٦٤ باختصار، تقول الرواية: إن عمر بن الخطاب ذهب في عصابة إلى بني هاشم بعد أن تمَّت البيعة لأبي بكر، =

=

وطلب إليهم أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس، وكان بنو هاشم في بيت علي، وقد أبوا وأبى من كان معهم أن يجيبوا دعوة عمر، بل خرج الزبير ابن العوام إلى عمر وأصحابه بالسيف، قال عمر لأصحابه: عليكم بالرجل فخذوه، فأخذوا السيف من يده، فانطلق فبايع، وقيل لعلي بن أبي طالب: بايع أبا بكر، فقال: (لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخذونه منا أهل البيت غصبًا، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لَمَّا كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة؟ فإذا احتُجَّ عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، ونحن أولى برسول الله حيًّا وميتًا، فانصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون).

قال عمر: (إنك لست متروكًا حتى تبايع).

وأجاب عليٌّ في حرارة وقوة: (احلب حَلبًا لك شطره، وشد له اليوم يردده عليك غدًا، والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه)، وخشي أبو بكر أن يبلغ الحوار بينهما العنف، فتَدَخَّل بين الرجلين وقال: (فإن لم تبايع فلا أُكرهك)، وتوجه أبو عبيدة بن الجراح إلى علي متلطفًا فقال: يا ابن عم إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا

=

=
بكرٍ إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالًا واستطلاعًا، فسلِّم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك).

هنا ثار علي وقال: (والله الله يا معشر المهاجرين! لا تُخْرِجُوا سلطان محمد في العرب من داره ومقر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به؛ لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدًا)، هذا وينكر بعض المؤرخين تخلف بني هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكارًا صريحًا، ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بإجماع لم يتوقعه أحد. وروى الطبري حديثًا بإسناده أن سعيد بن زيد سُئل: أشهدت وفاة رسول الله؟ قال: نعم. قيل: فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ؛ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، قيل: أخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد، لولا أن الله -عزَّ وجلَّ- تنقذهم من الأنصار، قيل: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من
=

المحتمل أن يكون السبب في ذلك موضوع (فَدَك)؛ ذلك أن فاطمة الزهراء -رضي الله عنها-، والعباس عمُّ رسول الله ﷺ أتيا أبا بكر بعد استخلافه يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ في أرض فَدَك، وفي سهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر: (أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرَّثُ، مَا تَرَكْنَاهُ**

=

غير أن يدعوهم.

وفي رواية أن عليَّ بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج في قميص له ما عليه إزار، ولا رداء عجلًا كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه.

وتجري بعض الروايات في أمر علي وبيعته مجرى وسطًا، من ذلك ما قيل من أن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم يرَ الزبير، فدعا به فجاء فقال: له ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًّا، فدعا به فجاءه فقال له: ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه).

صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ أَهْلُ مُحَمَّدٍ فِي هَذَا المَالِ»، وإني والله لا أَدعُ أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته)؛ فغضبت فاطمة لذلك وهجرت أبا بكر، وقد مكثت فاطمة ستة أشهر بعد وفاة أبيها، وكان عليٌّ يغاضب أبا بكر غضبًا لفاطمة زوجه، فلما ماتت مال إلى مصالحته وصالحه.

أما الذين ينفون التخلف عن بيعة أبي بكر فيرون أن روايات هذا التخلف مختلقة وموضوعة، وُضِعَت في عهد العباسيين لأهداف سياسية، أما معظمهم فيرجحون أنها وُضِعَت قبل عهد العباسيين، ومنذ اختلف بنو هاشم وبنو أمية على الأمر إبَّان حروب الإمام عليٍّ ومعاوية بن أبي سفيان، وهؤلاء يقولون: (إن امتداد الفتح إلى العراق وفارس أدى بجماعة من الفرس لابتداع هذه الأقاويل، وقد استجمَّت هذه الجماعة من الفرس بعد انتصار الأمويين، وأقامت في استجمامها تتحين الفرص حين تهيَّأت لأبي مسلم الخراساني، فكان من أمره وأمر العباسيين ما كان)(١).

وإذا كان المسلمون قد افترقوا عند موت النَّبيِّ وعند دفنه، وفي مسألة الإمامة في ميراث الأنبياء و(فَدَك)، فإنهم اختلفوا بعد

---

(١) هيكل، محمد حسين، الصديق أبو بكر ص ٦٧.

ذلك في قتال مانعي الزكاة في عهد أبي بكر، ثم أجمعوا أمرهم مع أبي بكر الصديق على ضرورة قتالهم حين قال قولته المشهورة: (والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه)، وحين قال عمر بن الخطاب: (كيف نقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَمَنْ قَالَهَا عَصِمَ مِنِّي مَالَهُ وَدَمَهُ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله**». فردَّ عليه الصديق قائلًا: (والله لأقتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال)، وقد قال: (إلا بحقها)، ويقال عن عمر قال: (فوالله ما هو أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق).

واختلف المسلمون بعد ذلك في شأن عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، وحدث في عهده فتن لها أسباب كثيرة يوضحها الإمام الشيخ محمد أبو زهرة منها[1]:

١- سماحه لكبار المهاجرين والمجاهدين الأولين بالذهاب إلى الأمصار، فإن أولئك انسابوا في الأقاليم الإسلامية بعد أن كان

---

(١)أبو زهرة، محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ٢٧، ٣٠ باختصار.

عمر -رضي الله عنه- قد منعهم من الخروج من المدينة إلا لولاية يتولونها أو لقيادة جيش يقودونه، وكان منعه لهم سببه أنه يريد أن ينتفع بهم، وخشية أن يُفْتَنَ الناس بهم، وأن ينقدوا الحكام بما لهم من سابقة، فأبقاهم عنده لينتفع هو بنقدهم.

فلما أذن لهم عثمان -رضي الله عنه- كان منهم نقد للخليفة، ونقد للحكام، وانظر إلى ما كان يقوله (أبو ذر الغفاري)، فإنه يروي أنه كان يقول بالشام: (والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها... والله ما هي من كتاب الله، ولا سُنَّة نبيه... والله إني لأرى حقًّا يُطفأ، وباطلًا يحيا، وصادقًا مكذَّبًا، وأثرة بغير تقى، ومالًا مستأثر به).

ولذا قال (حبيب الفهري) لمعاوية: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام، فتدارك أهله إن كان لك فيه حاجة، فشكا معاوية أبا ذر إلى عثمان فأحضره إلى المدينة، ثم نفاه إلى (الربذة).

وإذا كان (أبو ذر) قد تُدُورِك في الشام، فلا شك أن غيره أثر أثره في غير الشام، وإن في السامعين أقوامًا حديثي عهد بكفر، وفيهم من يدعون إلى الفتنة، وفي غيرهم سَمَّاعون لهم.

٢- ومن أسباب الفتنة في عهد عثمان اشتهار سيدنا عثمان

-رضي الله عنه- بحبه لقرابته، وليس في ذلك إثم ولا لوم، ولكنه ولَّاهم وقرَّبهم، وكان يستشيرهم في كثير من شئون الدولة، وفيهم من ليس أهلًا للثقة، وكان بعض أقاربه يحرضون سيدنا عثمان على عدم الالتفات إلى لوم اللائمين، ونقد الناقدين، يُرْوَى في ذلك أن عثمان لما أحاط به الذين تألَّبُوا عليه، وجاءوا إليه من (مصر)، و(الكوفة) استعان بعليٍّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- في صرف المصريين، فصرفهم وأشار عليه بأن يكلم الناس بكلام يسمعونه، يشهد الله على ما في قلبه من النُّزُوع والإنابة. فتكلم بكلام، فَرَقَّ له الناس، وبكى كثيرون منهم، وارتدت القلوب الشاردة، ولكن (مروان بن الحكم) جاء إليه، وقال له: بأبي أنت وأمي، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضي بها، وأعانك عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطُبيين(١)، وخلف السيل الزبى(٢).

وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل، والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها أجمل من توبة تخوف عليها، وإنك إن شئت تقربت

---

(١) الطبي: بضم الطاء وكسرها حلمة الثدي، وبلغ الحزام الطبيين مثل يضرب للشدة.

(٢) الزبى: المرتفعات من الأرض.

بالتوبة، ولم تقر بالخطيئة، وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس، فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم، فإني لأستحي أن أكلمهم، فخرج مروان بن الحكم على الباب، والناس يركب بعضهم بعضًا، فقال: ما شأنكم فقد اجتمعتم كأنكم اجتمعتم لنهب؟! شاهت الوجوه، كل إنسان أخذ بإذن صاحبه، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا، والله لئن رميتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غِبَّ رأيكم ... ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا)[1].

ولقد كان من نتائج هذا توليته ولاة من أقاربه، وبعض هؤلاء لم يكونوا من ذوي السبق في الإسلام، وبعضهم كان النَّبيُّ ﷺ قد أباح دمه؛ إذ ارتد بعد إيمان كـ(عبد الله بن سعد بن أبي السرح)، وقد ولاه بعد (عمرو بن العاص)، وقد أخذ هذا يؤلِّب الناس على عثمان؛ بسبب ذلك حتى كان يقول: (والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه)، وانتشرت بتولية (عبد الله) قالة السوء عنه؛ إذ أخذ الناس يتحدثون عنه، وهو الرجل الذي آمن ثم كفر،

(١)المرجع السابق ص ٢٩ نقلًا عن الطبري جـ ٥ ص ١١٢.

ثم كذب على رسول الله ﷺ.

ولم يكن عبد الله بن أبي السرح كيِّسًا رحيمًا، بل كان غليظًا قاسيًا وجريئًا في مخالفة عثمان، ولا شك أن فعل مثل هذا الوالي من شأنه أن يثير النقمة على أمير المؤمنين سيدنا عثمان -رضي الله عنه- وقد كان.

فإن المصريين كانوا أول الناس انتفاضًا وذهابًا إلى المدينة؛ لمحاصرة سيدنا عثمان -رضي الله عنه-، فإن فعل ابن أبي السرح هذا يجعل الناس ييئسون من إقامة العدل، وفي اليأس من العدل فتح باب الشر والفتن، والقتل والقتال؛ إذ الشعور بالعدل هو الحاجز الحصين دون الفتن.

ومن أسباب الخلاف أيضًا تساهل ولين سيدنا عثمان -رضي الله عنه-، فتساهله مع عماله -ولم يكن بعضهم عدلًا- جعل الناس ييئسون من العدل.

ولم يكن عثمان -رضي الله عنه- حازمًا مع الذين ثاروا عليه وهاجموا داره، وحصبوه وهو على المنبر، ولو أنه أخذ أولئك العصاة بالشدة عندما تحركت رءوس بالانتفاض والفتنة؛ حتى يعلموا أن الفتنة ليست وسيلة للعلاج، ثم بعد ذلك يرد الحق إلى

نصابه، ويعزل الولاة الظالمين -لأدى ذلك إلى نجاته- وإلى استتباب أمن المسلمين وحسم الخلاف، ولقد كان عظماء الصحابة على استعداد لنصرته، وكلما هموا بحمل السلاح ثبطهم، وقد منعهم سيدنا عثمان -رضي الله عنه- إيثارًا للعافية، ومنعًا للقتل والقتال بين المسلمين، فكان هو -رضي الله عنه- أول فداء، وكان قتله ابتداء بلاء للمسلمين، وفتح باب فتنة أخذت تموج كموج البحر.

ومن أسباب الخلاف بين المسلمين وجود طوائف من الناقمين على الإسلام الذين يكيدون لأهله، وقد دخلوا الإسلام ظاهرًا وأضمروا الكفر باطنًا، فأخذوا يشيعون السوء عن ذي النورين عثمان، ويذكرون عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالخير، وينشرون روح النقمة في البلاد، ويتخذون مما يفعله بعض الولاة ذريعة لدعايتهم، وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء (عبد الله بن سبأ)، وقد قال فيه ابن جرير الطبري: كان (عبد الله بن سبأ) يهوديًّا من أهل صنعاء، أمه أمة سوداء فأسلم زمان (عثمان)، ثم تنقَّل في بلدان المسلمين، يحاول ضلالهم، فبدأ ببلاد (الحجاز)، ثم (البصرة)، ثم (الشام) فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى (مصر)، فقال لهم فيما يقول: لعجب

obeikandi.com

ممن يزعم أن (عيسى) يرجع، ويكذب بأن محمدًا يرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، ثم محمد أحق بالرجعة من (عيسى).

ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نَبيٍّ، ولكل نَبِيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد، ثم قال: خاتم النَبِيِّين محمد، وعليٌّ خاتم الأوصياء.

ثم قال بعد ذلك: (إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ) فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وأيدوه بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لتستميلوا الناس... فبث دعاته، وكان ما كان ممن استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتبًا يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك... وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون).

من ذلك يتضح لنا خطر عبد الله بن وهب بن سبأ على الإسلام فهو أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعليٍّ بن أبي طالب بالإمامة بالنصِّ، وهو أول من أحدث القول برجعة

عليٍّ -رضي الله عنه- إلى الدنيا بعد موته، وبرجعة رسول الله ﷺ أيضًا.

وهو أول من أحدث القول بأن عليًّا -رضي الله عنه- لم يُقتل، وأنه لا يزال حيًّا، وأنه يسكن السحاب، وأن الرعد صوته، وأن البرق سوطه، وأن فيه جزءًا إلهيًّا، وأنه لا بدَّ أن ينزل إلى الأرض فيملؤها عدلًا كما مُلِئت جورًا، وأثر اليهودية واضح في هذه المسائل، وهكذا استطاع عبد الله بن سبأ اليهوديُّ أن يبث سمومه وأفكاره الخطيرة في الفكر الإسلامي[1]، فأما الرافضة فإن السبئية منهم من قال للإمام علي: أنت الإله فأحرق منهم من أحرق ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن.

---

(١) كان لتعاليم ابن سبأ أثر كبير في أفكار الغلاة من الرافضة والشيعة، فالإسماعيلية مثلًا يقولون: بأن الإمامة محصورة في ولد إسماعيل بن جعفر الصادق.

وبعض الإمامية يذهبون إلى القول بغيبة الإمام ورجعته إلى الدنيا بعد الموت، وهو ما يشير إليه قول كُثَيِّر عزة:

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يُرَى فيهم زمانًا ... برضوى عنده عسل وماء

وقد افترقت الروافض بعد عليٍّ -رضي الله عنه- إلى أربعة فرق: زيديَّةٍ[1]، ---------------------=

(١) الزيدية من الرافضة معظمها ثلاث فرق وهي الجارودية والسليمانية - وقد يقال لها الجريرية، والأبترية وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه في زمان هشام بن عبد الملك، وقد ظهرت الزيدية في مبدأ القرن الثاني الهجري، وكان الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يخشى زيدًا على سلطانه بعد أن اتهمه أمير العراق بأنه يهدف إلى الخلافة.

ومذهب الزيدية أقرب مذاهب الشيعة إلى الجماعة الإسلامية؛ لأنهم لم يغلوا في عقائدهم، ولم يكفِّرُ الأكثرون منهم أحدًا من الصحابة، ولم ترفع الأئمة إلى درج النبوة أو الألوهية، ومن أهم مبادئ الزيدية: الإمامة في أولاد فاطمة دون غيرهم، ويشترط أن يكون فاطميًّا ورعًا سخيًّا تقيًّا شجاعًا يخرج داعيًا الناس لنفسه، وتجب طاعته، ولا يقول بالتقية، والإمام عندهم منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، والإمامة عند الزيدية من المصالح العامة التي تفوض إلى المسلمين لاختيار من يرونه صالحًا لها، كما يجوز خروج إمامين في قطرين مختلفين دون قطر واحد، كما يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، فلو اختار أهل الحل والعقد إمامًا لم يستوفِ الشروط وبايعوه صحت بيعته، وبُنِي على صحة هذا بيعة =

=وكيسانيَّةٍ[1]، وغلاةٍ[2]، والغلاة خارجون عن الإسلام، وأما

=

أبي بكر وعمر وعثمان وإن كان عليٌّ أحق وأولى منهم؛ ولهذا لا يمنع أن يكون المفضول إمامًا والأفضل قائم يرجع إليه في الأحكام ويفتي في القضايا، لكن لما سمعت شيعة الكوفة منه ذلك رفضوا معاونته لما أعلن الخروج على بني أمية فسُمُّوا بالرافضة، ولم يجد زيد حوله عند الالتحام غير قلة قليلة فمات، ثم صُلب سنة ١٢١هـ، وكان يقول بتخليد مرتكب الكبيرة الذي مات، ولم يتب في النار، وذلك أثر تلقاه عن واصل بن عطاء المعتزلي، وهذا من أسباب خروج الشيعة عليه أيضًا.

(١) الكيسانية: أتباع كيسان مولى على بن أبي طالب وهم فرق كثيرة ترجع عند التحصيل إلى فرقتين: إحداهما: تزعم أن محمد ابن الحنفية حيٌّ لم يمت، وهم على انتظاره ويزعمون أنه المهدي المنتظر، والفرقة الثانية: مقرون بإمامته وبموته وينقلون الإمامة بعده إلى غيره.

(٢) فمن الغلاة من زعموا أن روح الله دارت في الأنبياء حتى صارت في (بيان بن إسماعيل التميميِّ) وأصحاب هذا الرأي يسمَّون (البيانية)، ويزعمون أن الإمامة صارت إلى (بيان) بعد (ابن الحنفية) بوصية منه فيقولون بتناسخ روح الله تعالى دون أرواح العباد، وقد صلب خالد ابن عبد الله القسري والي العرق (بيانًا) هذا، ومنهم (الجناحية) أتباع (عبد الله بن معاوية ذي الجناحين)
=

الزيدية أو الإمامية(١) فمعدودون في فرق الأمة.

=

كانوا يعتقدون أن روح الله دارت في الأنبياء كما كانت في علي وأولاده وزعموا أن كل ما في القرآن الكريم من تحريم الميتة، والخمر، ولحم الخنزير كناية عن قوم من أعداء علي، ومنهم أيضًا (المفوضة) ينسب إليهم القول بأن الله خلق محمدًا -عليه السلام- وفوض إليه خلق العالم وتدبيره، وقال بعضهم: بل كان التفويض إلى علي -كرم الله وجهه-.

وغلاة الشيعة هم الذين قالوا بإلهية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة كالبيانية، والجناحية، والمفوضة، وفرق أخرى عديدة، منها: المغيرية، والمنصورية، والخطابية، والحلولية، فما هم من فرق الإسلام.

(١) الإمامية: هم القائلون بأن إمامة عليٍّ ثابتة بالنص عليه بالذات من النَّبِيِّ ﷺ نصًّا ظاهرًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة بالعين، وسمُّوا إمامية لتركيز آرائهم حول الإمامة، وهم يقولون: إن النَّبِيَّ ﷺ نصَّ على تعيين عليٍّ؛ لأنه ليس في الدين أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقة النبي ﷺ للدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة؛ لأنه بُعِث لتقرير الوفاق أو رفع الخلاف، فلا يجوز أن يفارق ويتركهم هملًا؛ ولهذا يستدلون على تعيين علي بن أبي طالب بقوله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، ومثل «أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ»، =

=

وغير ذلك مما يدعون صدقه ودلالته، ويشك فيه بعض علماء الحديث الشريف كما سنبيِّن في القسم الثالث إن شاء الله.

فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها باختيار المسلمين، ولكنها ركن الدين وقاعدة الإسلام، فلا يجوز للرسول إغفالها، وإنما يجب عليه أن يعيِّن إمامًا للمسلمين يكون معصومًا من الصغائر والكبائر.

والاعتراف بالإمام جزء من حقيقة الإيمان وبدونه يكون الشخص كافرًا.

ولم تقتصر الإمامية على القول باستحقاق عليٍّ الخلافة دون سائر الصحابة، بل حكموا على من تولى الخلافة غيره ومن بايعوه بمخالفة النصوص، ووصفوهم بالكفر، وحكموا ببطلان خلافتهم؛ لأنهم مغتصبون ظالمون، قد جعل (الإمامية) سلسلة الخلافة بعد عليٍّ في أولاد فاطمة وذرية الحسين.

ومن مبادئ الإمامية القول باختفاء الأئمة ورجعتهم، ومن مبادئهم أيضًا التقية: ومعناها المداراة والمصانعة، والمقصود منها عند الشيعة النظام السري الذي يكتمونه عن الناس ويسيرون على تعاليمه في الدعوة إلى إمامهم المنتظر، وإظهار الطاعة لمن بيده الأمر؛ حتى يأنسوا بقوتهم فيحملوا السلاح في وجه الدولة

=

وهكذا أخذت أفكار ابن سبأ المسمومة تنهش في جسم الأمة الإسلامية، وتعمل على تفرقتها، وبذر الفرقة بينها، ونجحت في صنع الخلاف، وبذر معركة أصحاب الجَمَل، وصنعت في صِفِّين معركة، وكانت بذور سمومها واضحة في مسألة الحكمين، وهذا هو الخلاف الخطير الحقيقي في جسم الإسلام الذي أدى إلى

=

القائمة.

وقد اتفق الإمامية على أن الإمام الأول عندهم عليٌّ بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم أخوه الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، وليس للحسين عقب إلا منه، والخامس محمد الباقر بن علي زين العابدين، ثم ابنه الإمام جعفر الصادق، وبعد جعفر هذا بدأ انقسام الإمامية؛ لاختلافهم في تسلسل الأئمة إلى فرق متعددة.

فالإمامية خمس عشرة فرقة: المحمَّدية، والباقرية، والناووسية، والشِّميطية، والعمارية، والإسماعيلية، والمباركية، والموسوية، والقطعية، والاثنا عشرية، والهاشمية من أتباع هشام بن الحكم، أو هشام بن سالم الجواليقي، والزرارية من أتباع زرارة بن أعين، واليونسية من أتباع يونس القمِّر، والشيطانية من أتباع شيطان الطاق، والكاملية من أتباع أبي كامل وهو أفحشهم قولًا في عليٍّ وفي سائر الصحابة رضوان الله عليهم.

انقسام المسلمين إلى (شيعة علي) وهم الذين قالوا بخلافته نصًّا وتعيينًا، و (خوارج) وهم الذين خرجوا على عليٍّ لرضائه بالتحكيم، فأول فرق الإسلام هم الشيعة والخوارج، ثم اختلفت الخوارج فصارت نحوًا من عشرين فرقة كل واحدة تكفِّر سائرها.

وبين الشيعة والخوارج ظهرت فرقة جديدة هي المرجئة[1]، وسبب نشأة هذه الطائفة أنه لما انقسم أتباع سيدنا عليٍّ بْن أبي طالب، بسبب رضائه عن التحكيم، إلى خوارج وشيعة، وكانت الخوارج يكفِّرون عليًّا وعثمان، والقائلين بالتحكيم والشيعة منهم من يكفِّر الصديق وعمر وعثمان، وكلاهما يكفِّر الأمويين، وكان ذلك سببًا في أن جماعة من الصحابة كرهوا هذا النزاع وسلكوا

(١)كلمة المرجئة: مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخَّر، سموا المرجئة؛ لأنهم يرجئون أمر المختلفين الذين سفكوا الدماء إلى يوم القيامة فلا يقضون بحكم لا على هؤلاء، ولا على هؤلاء، وبعضهم يشتق اسمهم من أرجاء بمعنى بعث الرجاء؛ لأنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، والمرجئة خمس فرق: يونسية، وغسانية، وثوبانية، وتؤمنية، ومريسية، واتفق في هذا التقسيم البغدادي والمقريزي (جـ ٢: ٣٤٩: ٣٥٠).

طريقًا وسطًا حتى تنجلي الفتنة؛ ولهذا امتنعوا عن الخوض في شأن المتنازعين، وأرجئوا الحكم في شأنهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا سموا بالمرجئة، ويقال: إن أصحاب هذه الفكرة هم:

سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وعمران بن الحصين وحسان بن ثابت، وأبو بكرة.

وأما ابن عساكر فيقول عن المرجئة: إنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف، فقالوا: تركناكم وأمركم واحد، ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول: قُتِل عثمان مظلومًا، وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول: كان عليٌّ أولى بالحق، وأصحابه كلهم ثقة، وعندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله؛ حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما، وهناك رأي آخر يقول: إن أول من قال بالإرجاء (هو الحسن بن محمد ابن الحنفية)، ولكنه لم يؤخر العمل عن الإيمان، بل قال: إن أداء الطاعات وترك المعاصي ليسا من

الإيمان فلا يزول بزوالها[1].

وقيل: أول من وضع الإرجاء بالبصرة (حسان بن بلال المزني)، وقيل: (أبو سلت السمان المتوفى ١٥٢ هـ)[2].

ونلاحظ أن المرجئة يبالغون في إثبات الوعد[3]، ويرجون المغفرة لأهل المعاصي، وهم يحكمون على مرتكب الكبيرة بأن أمره مفوَّض لربه إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، ويقولون: بأن الإيمان تصديق ومعرفة، ولهذا فإنهم لا يعيرون للعمل أدنى اهتمام، وقد تغالى بعضهم فزعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأصنام، أو لزم اليهودية أو النصرانية في

---

(١)وظاهر من ذلك أن الحسن بن محمد ابن الحنفية لا يذهب مذهب المرجئة من كل وجه.

(٢)ومن المرجئة طائفة الثوبانية أتباع (ثوبان) المرجئ الخارجي الذي يقول عن الإيمان: هو المعرفة والإقرار، ثم يقول: إن الإيمان فعل ما يجب في العقل فعله، وهو هنا يقول بمذهب المعتزلة.

ومن المرجئة طائفة الضرارية أتباع (ضرار بن عمرو) الذي مع قوله بالإرجاء، يقول: إن الله تعالى يرى في الآخرة بحاسة سادسة.

(٣)عكس المعتزلة المبالغين في إثبات الوعيد.

دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن؛ ولذا قال زيد بن علي بن الحسن: (أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله).

وهكذا نلاحظ أن المرجئة كنت في أول مبدئها رأيًا سياسيًّا له موقفه في الخلاف الذي نشأ حول الخلافة، ثم تطورت المرجئة إلى فرقة كلامية تبحث في مسائل الإيمان والكفر، ورأت أن الأعمال الظاهرة ليست جزءًا من الإيمان(١).

وقالت المرجئة: بأن لله وعدًا ووعيدًا، وأن وعده لا يتخلف؛ لأن الثواب الذي وعد الله به فضل منه، ولا بدَّ من أن يفي الله بوعده، على حين أن وعيد الله قد يتخلف؛ لأن العقاب الذي توعَّد الله به عدل، ولله أن يتصرف في عدله كما يشاء(٢).

وهكذا تفرق المسلمون طوائف واستطاع بعض الحاقدين على الإسلام وأعدائه أن ينجحوا في تفريق المسلمين؛ وبخاصة ذلك اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ.

---

(١)وهذا مخالف لما قالت به الخوارج من أن الإيمان هو معرفة الله ورسله وأداء الفرائض والامتناع عن الكبائر.

(٢)وهذا مخالف لما قالت به المعتزلة من الذين يبالغون في إثبات الوعيد كما قلنا.

وإذا كان عبد الله بن سبأ اليهودي له دوره الخطير في اختلاف المسلمين فإن رجلًا نصرانيًّا من أهل العراق يقال له: سوسن كان له هو الآخر في اختلاف المسلمين، فقد أظهر سوسن الإسلام وصحب معبد بن عبد الله الجهني البصري، وعلمه القول بالقدر(١)، فكان معبد هذا أول رجل قال بالقدر في الملة المحمدية(٢)، وقدم مدينة الرسول ﷺ فأفسد عقول بعض الناس،

---

(١) افترقت القدرية إلى عشرين فرقة: واصلية، وعمرية، والهذيلية، والنظامية، والأسوارية، والمعمرية، والإسكافية، والجعفرية، والبشرية، والمرادية، والهشامية، والتمامية، والجاحظية، وأصحاب صالح، والمونسية، والكعبية، والجبائية، والشحامية، والبهشمية أو الهشيمية (المنسوبة إلى أبي هاشم بن الجبائي) والخياطية، والحائطية، والحمارية، فهذه ثنتان وعشرون فرقة، ثنتان منهما ليستا من فرق الإسلام وهما: الحائطية والحمارية.

(٢) يُرْوَى أن معبد بن خالد الجهني سمع من يتعلل في المعصية بالقدر، فقال في الردِّ عليه: (لا قدر والأمر أنف) أي: إن الأمور يستأنف العلم بها، وتستأنف بالتالي إرادتها، وكأنه بذلك نفى الإرادة الأزلية، ونفى العلم الأزلي القديم؛ وذلك ليخرج فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فالقدرية قالوا بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله، وقد ردَّدوا هذا بالشام والعراق، والقدرية ضد الجبرية، وقد مهدوا للمعتزلة وتلاشوا =

فاشتغل أهل زمانه بتحذير الناس منه، وقد رُوِي أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية في المسجد يقول: إن معبدًا يقول بقول النصارى، وما زال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين فقتله وصلبه بدمشق"(١).

وقد أخذ عن معبد الجهني غيلان بن مروان (أو ابن مسلم) الدمشقي فقال بالقدر خيره وشره: إنه من العبد، وقال في الإمامة: (إنها تصلح في غير قريش، وإن كل من كان قائما بالكتاب والسُنَّة كان مستحقًا لها، وإنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة).

وغيلان الدمشقي ظل داعيًا للقدرية بالشام، وقد ناقشه عمر بن عبد العزيز، وكتب هو إليه كتبًا يدعوه فيها إلى التمسك بالعدل، ومن هذه الكتب كتاب أرسله إلى عمر جاء فيه:

أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت، اعلم يا عمر أنك أدركت الإسلام خلقًا باليًا، ورسمًا عافيًا، فيا ميِّت بين الأموات، لا ترى أثرًا فتتبع، ولا تسمع صوتًا فتنتفع، طُغِي على

=

فيهم، بل إن المعتزلة يسموا أحيانًا بالقدرية.

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٩.

السُنَّة، وظهرت البدعة، أخيف العالم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام فانظر أيُّ الإمامين أنت؟ فإنه تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء: ٧٣] فهذا إمام هُدِي هو ومن اتبعه شريكان، وأما الآخر، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١]، ولن تجد داعيًا يقول: (تعالوا إلى النار؛ إذن لا يتبعه أحد، ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله سبحانه وتعالى، فهل وجدت يا عمر حكيمًا يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضي على ما يعذب عليه؟ أم هل وجدت رحيمًا يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة؟ أم هل وجدت عدلًا يحمل الناس على الظلم والتظالم؟ وهل وجدت صادقًا يحمل الناس على الكذب والتكاذب؟ كفى ببيان هذا بيانًا، وبالعمى عنه عمى)(١).

ورُوي أن عمر بن عبد العزيز دعاه وناقشه في نِحلته، وقطع حجته، فقال غيلان له: يا أمير المؤمنين، لقد جئتك ضالًّا فهديتني، وأعمى فأبصرتني، وجاهلًا فعلمتني، والله لا أتكلم في

(١) المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى، المنية والأمل، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور، ص ١٤٤.

شيء من هذا الأمر، ولكن يظهر أنه عاد إلى دعوته بعد موت أمير المؤمنين، ويقال: إن عمر بن عبد العزيز قال لغيلان: أَعِنِّي على ما أنا فيه، فقال له غيلان: ولِّني بيع الخزائن ورد المظالم فولاه، فكان يبيعها وينادي عليها قائلًا: (تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف رسول الله ﷺ في أمته بغير سنته وسيرته)[1].

وبعد موت عمر بن عبد العزيز عاد غيلان إلى دعوته حتى جاء عهد هشام بن عبد الملك، وَأَحَسَّ هشام بخطر هذه الأفكار، فوجدنا واليه بخراسان يقتل الجعد بن درهم؛ لقوله عن القرآن مخلوق، وتتبع هشام أفكار غيلان، ولكنه يريد أن يقتله بحجة وبرهان؛ ولهذا دعاه إلى مناقشة فقيه الشام الإمام الأوزاعي، فناقشه حتى قطعه كما جاء في العقد الفريد، وهذه المناقشة كما ذكرها صاحب (محاسن المساعي في مناقب أبي عمر الأوزاعي):

(كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدري - يقصد غيلان - فبعث هشام إليه فقال له: قد كثر كلام الناس فيك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، ادع من شئت فيجادلني، فإن أدركت عليَّ

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥.

بذلك فقد أمكنتك من علاوتي -أي رقبتي ونفسي- فقال هشام: قد أنصفت).

فبعث إلى الأوزاعي، فلما حضر قال له هشام: يا أبا عمر ناظر لنا هذا القدري، فقال الأوزاعي مخاطبًا غيلان: اختر إن شئت ثلاث كلمات، وإن شئت أربع كلمات، وإن شئت واحدة.

فقال القدري (غيلان): بل ثلاث كلمات.

فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل هل قضى على ما نهى؟

فقال القدري غيلان: ليس عندي في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: هذه واحدة، ثم قال: أخبرني عن الله -عزَّ وجلَّ- أحال دون ما أمر؟

فقال القدري: هذه أشد من الأولى، ما عندي في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: هذه اثنتان يا أمير المؤمنين، ثم قال أخبرني عن الله -عزَّ وجلَّ-: هل أعان على ما حرَّم؟

فقال القدري غيلان: هذه أشد من الأولى والثانية، ما عندي

في هذا شيء.

فقال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات، فأمر هشام فضربت عنقه.

ثم قال هشام للأوزاعي: فَسِّرْ لنا هذه الكلمات الثلاث ما هي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أمَا تعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قضى على ما نهى، نهى آدم عن الأكل من الشجرة، ثم قضى عليه بأكلها، فأكلها يا أمير المؤمنين؟!

أمَا تعلم أن الله تعالى حال دون ما أمر، أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود؟

أمَا تعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى أعان على ما حرم، حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، ثم أعان عليها بالاضطرار...؟

فقال هشام أخبرني عن الواحدة ما كنت تقول له؟ قال كنت أقول له: أخبرني عن الله -عزَّ وجلَّ- حيث خلقك، خلقك كما شاء، أو كما شئت؟ فإنه يقول: كم شاء، فأقول له: أخبرني عن الله -عزَّ وجلَّ-، أيتوفاك إذا شئت، أو إذا شاء؟ فإنه يقول: إذا شاء، فأقول له: أخبرني عن الله -عزَّ وجلَّ- إذا توفَّاك أين تصير؟ أحيث شئت، أم حيث شاء؟ فإنه كان يقول: حيث شاء يا أمير

المؤمنين، من لم يمكنه أن يحسن خلقه، ولا يزيد في رزقه، ولا يؤخر أجله، ولا يصير نفسه حيث شاء، فأي شيء في يده من المشيئة يا أمير المؤمنين، إن القدرية ما رضوا بقول الله تعالى، ولا بقول الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول الملائكة، ولا بقول أخيهم إبليس، فأما قول الله تعالى: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم: ٥٠].

وأما قول الملائكة فهو: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢].

وأما قول الأنبياء فقال شعيب -عليه السلام-: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وقال نوح -عليه السلام-: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وأما قول أهل الجنة، فإنهم قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وأما قول أهل النار فهو: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وأما قول إبليس فهو: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩].

وإنني أتفق مع مولانا الشيخ أبو زهرة في قوله: (وإن رواية هذه المناظرة إذا صحت ليست مناظرة تساوى الطرفان فيها، بل كان أحدهما حرًّا طليقًا في إلقاء الأسئلة، والآخر ليس عليه إلا أن يجيب من غير استفسار، فإما الإجابة وإما السيف)، ويظهر من سياق القول: أن الحكم بالإعدام سبقها، فكانت تبريرًا للإعدام أمام الناس، ولم تكن سببه وباعثه، ومثله كمثل من يحكم ثم يسمع الشهادة؛ لأجل تنفيذ الحكم، لا لأجل إصدار الحكم، ثم إن الأسئلة كلها تتجه نحو غاية واحدة تبلغ من الإبهام حد الإلغاز، حتى إن هشامًا لم يفهم السؤال في الأصل، ولو كان يريد الحق لاستفسر عن المعنى قبل أن يقتل، فكانت أشبه بالأحاجي منها بالأسئلة، ولم تكن إذن مناقشة، بل كانت تعلة تتخذ ذريعة للقتل الذي تقرر قبلها.

ومهما يكن الأمر في هذه المناقشة، فإنها بلا ريب تدل على علم الأوزاعي الدقيق بالقرآن الكريم، وعلى أنه كان على استعداد لهذه المناقشة قبل وقوعها، وأنه أخذ الأهبة، وقد ساق فيها آيات قرآنية

كريمة تدل بظاهرها على ما ينافي القدرية)[١].

ويذكر صاحب (المنية والأمل) سببًا آخر لموت غيلان، وهو أنه لما كان غيلان على بيت خزائن عمر بن عبد العزيز، وكان يبيع أمتعتهم ويشتد عليهم في القول، ويعيب على بني أمية إسرافهم، مرَّ به هشام بن عبد الملك، قال: أرى هذا بعيني ويعيب آبائي، والله إن ظفرت به لأقطعنَّ يديه ورجليه، فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه صالح إلى أرمينية، فأرسل هشام في طلبهما فجيء بهما فحبسهما أيامًا، ثم أخرجهما، وقطع أيديهما وأرجلهما، وقال لغيلان: كيف ترى ما صنع بك ربك؟ فالتفت غيلان فقال: لعن الله من فعل هذا واستسقى صاحبه، فقال بعض من حضر: لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم، فقال غيلان لصالح: يزعم هؤلاء أنهم لا يسقوننا حتى نشرب من الزقوم، ولعمري لئن كانوا صدقوا إن الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من عذاب الله، ولئن كانوا كذبوا فإن الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من روح الله، فاصبر يا صالح، ثم مات صالح وصلَّى عليه غيلان، ثم أقبل على الناس، وقال: قاتلهم

(١) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ١٢٩ .

الله كم من حق أماتوه، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه، فقيل لهشام: قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه، إنه قد أبكى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين، فأرسل إليه من قطع لسانه فمات -رحمه الله تعالى-(١).

وعلى العكس من القدرية نجد طائفة الجبرية وكان جهم بن صفوان (ت ٧٤٥م) أو دعاة الجبرية، فذهب إلى أن أعمال الإنسان يخلقها الله، وكان يقول: إن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة، وإن الله قدَّر عليه أعمالًا لا بدَّ أن تصدر منه، فالله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجماد، وتنسب هذه الأفعال إلى الإنسان مجازًا كما تنسب إلى الجمادات، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال جبر، والله قدر لفلان فعل كذا وقدر له أن يثاب، وقدر على إنسان آخر فعل المعصية، وقدر أن يعاقب، فالمجبرة أتباع جهم بن صفوان(٢)، يغالون في نفي الاستطاعة عن الإنسان، ويجعلونه كالريشة في

---

(١)ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٢)جهم بن صفوان الترمذي من أهل خراسان من الموالي وأقام بالكوفة وكان خطيبًا مفوَّهًا فصيحًا، وقد قُتل في سنة ١٣١هـ في آخر الدولة الأموية.

مهب الريح، أو كأغصان الشجرة، بينما المعتزلة يغالون في إثبات الكسب للإنسان ومذهب أهل السُّنَّة وسط بين المذهبين.

وقال جهم بن صفوان بنفي صفات الله؛ ذلك أنه وردت في القرآن آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام، فنفى جهم أن يكون لله صفات غير ذاته، وقال: إن ما ورد في القرآن، مثل: سميع وبصير ليس على ظاهره، بل هو مؤول؛ لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق، وهو مستحيل على الله، فيجب تأويل ذلك، وقال: لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك يقتضي التشبيه، وقال: إن القرآن مخلوق خلقه الله، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات، فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم إلا على التأويل، وإنما خلقه الله، وأنكر أن الله يرى يوم القيامة، وقال: إن الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلها فيها، وبعد تلذذ أهل الجنة بنعيمها، وتألم أهل النار بجحيمها؛ إذ لا يُتَصَوَّر حركات لا تتناهى آخرًا كما لا يتصور حركات لا تتناهى أولًا(١)، ومعنى ذلك كله أن جهم بن صفوان كان ينفي الصفات الإلهية وينفي رؤية الله، ويزعم أن الجنة والنار

---

(١) أمين، أحمد، فجر الإسلام جـ ١ ص ٣٤٣.

تفنيان، وتنقطع حركات أهلهما محتجًّا بأن عدم فنائهما يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

وذلك مردود عليه.

فالفخر الرازي قال: (إن الله يعلم الشيء على ما هو عليه، وكما هو في نفسه فلما لم يكن لأجزاء غير المتناهي أجزاء متناهية امتنع أن يعلم الله كونها متناهية، ويريد أن العلم بها على أنها غير متناهية هو العلم اللائق بالله تعالى، ووافقه ابن حزم في ذلك وزاد عليه: إن من علم الشيء على خلاف ما هو عليه فهو جاهل به مخطئ في اعتقاده ظانٌّ للباطل، وعلم الله تعالى هو اليقين الحق).

وقد قال جهم بن صفوان: إن من عرف الله ولم ينطق بكلمة التوحيد لا يكفر؛ لأن العلم لا يزول بالصمت ولا بالجحود[1]، أي: إنه يتفق مع المرجئة بأن الإيمان محله القلب، ومن قبل وجدناه نفى مع المعتزلة عن الله كل وصف يجوز إطلاقه على غيره، كالوجود والحياة والعلم، وجوَّز وصفه فقط بما يختص به من

---

(١)وهذا مردود بأن الإيمان هو التصديق بالقلب بشرط الإقرار باللسان؛ إذ الإقرار شطر منه؛ لقول رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

صفات الأفعال كالخلق، وذهب إلى أن كلام الله حادث.

ولقد ذابت القدرية والجهمية وانصهرتا في غيرهما من المذاهب الكلامية الإسلامية، ولم يصبح لهما وجودٌ خاصٌّ مستقلٌّ.

هكذا بيَّنَّا كيف اختلفت الأمة الإسلامية إلى فرق عديدة، ومذاهب كلامية متعددة، ولعل كتب اليونان وفلسفاتهم كانت سببًا في ظهور المدارس الكلامية الإسلامية، وكانت مدرسة المعتزلة الكلامية الامتداد الطبيعي إلى حد ما للقدرية(١) والجهمية.

---

(١) ذلك أن المعتزلة وافقوا القدرية في قولهم: إن للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه.
ومن العجيب أن المعتزلة أحيانًا يلقبون بالجهمية، لا لأنهم وافقوا الجهمية في القدر، فالجهمية جبرية؛ ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية في نفي الصفات عن الله، وفي خلق القرآن، وقولهم: إن الله لا يرى، وقد ألف البخاري والإمام أحمد كتابين في الردِّ على الجهمية وعنيا بهم المعتزلة، والمعتزلة يبرءون من تسميتهم بالقدرية أو الجهمية، ويقولون: إن مثبت القدر أولى بالانتساب إليه عن نافيه، ويتبرأ بشر بن المعتمر المعتزلي من الجهمية فيقول:

نَنفيهمو عنا ولسنا منهمُ   ولا همو منا ولا نرضاهمُ

=

والرأي الشائع والمعروف أن اسم المعتزلة جاء نتيجة لخلاف حسن البصري وواصل بن عطاء في مسألة مرتكب الكبيرة ، فالخوارج قالت بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفسقوا بالكبائر، وخرج واصل بن عطاء عن رأي الفريقين وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، وفي منزلة بين المنزلتين، فطرده الحسن من مجلسه، فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما، ولأتباعهما (معتزلون)؛ لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن... ويذهب البغدادي إلى أنهم سُمُّوا معتزلة؛ لأنهم اعتزلوا قول الأمة في دعواها: إن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر.

لكن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، أما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقوله خصومه من أنه قدَّر على الناس المعاصي، ثم عذبهم عليها، وقالوا: إن الإنسان حر فيما يفعل، ومن أجل هذا عذب على ما يفعل وهذا عدل، وأما التوحيد؛ فلأنهم نفوا صفات الله، وعدوا القول بها تقديرًا لله تعالى.

=

إمــامهم جهــم ومــا لجهــم وصــحب عمــرو ذي التقــى

والمعتزلة من أشهر الفرق الإسلامية استدلالًا على عقائدهم بالعقل، ولا يحد من ثقتهم بالعقل إلا احترامهم لأوامر الشرع[١].

---

(١)من أهم مبادئ المعتزلة قولهم بالحسن والقبح العقليين: فالعقل عندهم يدرك حسن الأشياء وقبحها، ويدرك حكم الله الحسن بطلب فعله وفي القبح تركه، وبنوا آراءهم في العقائد على هذا المبدأ فطريق وجوب المعرفة العقل لا الشرع، والمعتزلة يقولون: إن الإيمان تصديق وعمل وإن مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب من ذنبه في منزلة بين المنزلتين، ومن مبادئهم أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه، وإن الله تعالى لا يأمر إلا بما أراد ولا ينهى إلا عما كره فهو يريد الخير، ولا يريد الشر، وصفة القدم خاصة بذات الله وصفة الوحدانية؛ ولهذا أنكروا المعاني حتى لا يتعدد القدماء، والمعتزلة يقولون: إنه يجب على الله تعالى تنفيذ وعده ووعيده، وإرسال الرسل لعباده، وتأييدهم بالمعجزات، ورعاية الصلاح والأصلح لخلقه.

وهم يقولون باستحالة رؤية الله تعالى؛ لاقتضائها المشابهة للحوادث، وينكرون الشفاعة لمرتكبي الكبائر، ويوجبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤولون المتشابه من القرآن والسُّنَّة.

وقال أبو الحسن الخياط المعتزلي: (وليس أحد يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والوعد =

=

والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

ويقول المعتزلة: إن إحدى الطائفتين من (أصحاب الجمل)، و(صِفِّين) في النار لا يعنون واحدة، وأهل السُّنَّة يؤولون التشاجر بين الطائفتين تأدبًا واحترامًا لصحبتهم للنبي ﷺ، وجهادهم في سبيل الدعوة الإسلامية، ويقولون: الكل مجتهد ينشد مصلحة الإسلام والمسلمين، وقال المعتزلة بخلق القرآن، ويرد أهل السُّنَّة عليهم بقولهم: إن الدلالات وهي الألفاظ التي نقرؤها حادثة؛ لأننا نتلوها بألسنتنا، ونكيِّفُها بأصواتنا، وهي في حين القراءة قائمة بالحادث. ومعنى حدوثها أن الله خلقها، وليس لأحد في أصل تركيبها كسب ما، وأما مدلول القرآن (وهو الصفة النفسية القائمة بذاته تعالى) فقديم بلا جدال، والفرق بين القراءة والمقروء كالفرق بين الذكر والمذكور، فالذكر حادث والمذكور قديم. وقد تورَّع كثير من العلماء، ومنهم الإمام أحمد عن القول بخلق القرآن، وفضَّلوا التعذيب على أن يقولوا بخلق القرآن حتى دلالاته؛ لئلا ينْجَرَّ بعض الناس إلى اعتقاد خلق الصفة القديمة؛ فإن كلام الله يُطلَق على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى، ويطلق مجازًا أو بالاشتراك على القرآن الذي نقرؤه من هنا تورَّعوا عن القول بخلقه.

=

وبعد... فهذا مدخل عام وصورة لاختلاف الفرق الإسلامية، وأهم أسباب الاختلاف، وطبعيٌّ في هذا القسم الخاص بفرقة (الخوارج) أن أركز حديثي عن الخوارج فقط، أما بقية الفرق الإسلامية فسأتناولها -بإذن الله تعالى- في مؤلفات قريبة إن شاء الله.

=

والحقيقة: أن الخوارج يتفقون مع المعتزلة في بعض من مبادئهم؛ فهم يتفقون معًا في وجوب الخروج على الإمام الجائر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالحسن والقبح العقليين، والقول بالوعد والوعيد، وخلق القرآن، وتأويل المتشابه، وينفون رؤية الله في الآخرة، ويختلفون عنهم في صفة الإرادة التي اعتبرها الأباضية أزلية، لا حادثة كما يذهب جمهور الأباضية إلى أن الله خلق أفعال العباد جميعها، وليس لهم إلا مجرد اكتسابها، والأباضية لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج، ومن الخوارج من يرون حرية الإرادة، وقدرة الإنسان على خلق عمله وحريته.